نقد الشعر : في البحث عن المصطلح

الطاهر الهمامي

أستاذ الأدب العربي – كلية الآداب – تونس

(1)

شهد النصف الثاني من القرن العشرين ازدحام الساحة النقدية العربية بالمناهج والنظريات المنصبة على مقاربة النص عامة، والنص الشعري خاصة.

هذه الفورة المنهجية والنظرية (1) اصطدمت عند وصولها بسؤال النقل، مصطلحاتها والعثور لها على التسميات العربية الملائمة.

وأمام تسارع دخول الدخيل من هذه الأجهزة المفهومية والمصطلحية و الحاجة الملحة إلى "اللحاق بركبها" وإلى التسمية الجديدة النابعة من طبيعة المسمى الجديد (2) وفي غياب المواكبة المجمعية اللغوية الموحدة والمقنعة عول النقاد على جهودهم الفردية وطفق كل واحد يجتهد في النقل والترجمة والتسمية وعلى فهمه(الذي قد يصيب وقد لا يصيب) للدال الأصلي في لغته الفرنسية أو الانجليزية أو غيرها وعلى مدى مهارته في نحت اللفظ البديل واهتدائه إلى المقابل الكفيل.

وبلغ التعدد بالنظريات والتنظيرات النقدية والقرائية حدا صارت معه "المدرسة" "مدارس" بعدد أعلامها وأقطابها، ومثال ذلك توزع الإنشائية (إحدى ترجمات Poétique) على إنشائية جاكبسون، وإنشائية ودوروف باختين ... الخ، وتوزع البنيوية (إحدى ترجمات structuralisme) على بنيوية بارط وبنيوية جينات وبنيوية غولدمان... الخ.

(2)

وأوقعت النقول الفردية التي واجه بها النقاد العرب هجوم المدارس النقدية الحديثة وترسانتها الاصطلاحية في إخلالات جمة كان من نتائجها فقدان المعرفة المنقولة لنجاعتها الإجرائية وهي تدخل فضاء اللغة العربية وتعذر النفع على جمهور التلقي العربي.

والذي رشح المساعي التعريبية لمزيد التشرذم هو اختلافها باختلاف اللغات التي يأخذ منها النقاد (فرنسية، انقليزية...) وباختلاف مواقعهم من الحداثة والقدامة، ومواقفهم اللغوية والفكرية ومستوياتهم المعرفية،فالآخذ من الفرنسي ة يستخدم الرومنطيقية والرومانتية والرومنتيزم، والآخذ من

الأنجليزية يؤثر " الرومنسية"، وقد تجري على أديم النص الواحد هذه الصيغ جميعها ، فضلا عن تعايشها تحت سقف الجامعة الواحدة في البلد الواحد.

(3)

وأفضى التشتت المصطلحي بالناقد العربي، وهو يخشى على نصه سوء ا لفهم، إلى تذييله بجدول في المصطلحات التي استخدمها (3) يضم أصولها الأجنبية ونقولها العربية، وذلك لعلمه أن غـيره قـد يذهب مذاهب تعريبية أخرى، وأن المسألة خلافية بقدر ما هي اجتهادية . ولا تكاد تخلـو رسـالة أو أطروحة جامعية دائرة على نظرية الأدب ونقدالشعر ودراسة النص من فهـرس، بـين فهارسـها، بالمصطلحات المنقولة، حتى يتسنى للأستاذ المشرف واللجنة اختبار المترشح ومساءلته في نقله أولا وحتى لا تتعسر القراءة على القارئ بعد نشر العمل ثانيا، وكثيرا ما يحرص الناقد أو الدارس على "تفسـير" النسخة العربية بإحضار الأصل الفرنسي أو الانجليزي ووضعه قبالتها بين قوسين كي يشير إلى كونـه يعرض ترجمة شخصية أو وليجدة من الترجمات المتداولة في غياب المرجع الموحد . كأن تراه يشفع لشعرية ب Poétique والتماثل بـ équivalence و الانزياح بـ écart وقصيدة النثر بـ poème en proseالخ وهي ظاهرة لا يكاد يخلو منها نص نقدي عربي وقد ينوس الدارس، أمام كثرة الترجمـات، بينها جميعا وكأنه يريح نفسه من عناء التورط في ترجمة واحدة، ويوفر لها ضمانة التلقـي المطلـوب .

وتلقى Poétique في الساحة النقدية الشعرية العربية عشر ترجمات على الأقل هي : الشعرية والإنشائية والشاعرية وعلم الأدب والفن الإبداعي وفن النظم وفن الشعر ونظرية الشعر وبويطيقا وبويتيك (4) . كما تلقى écart المصير التعريبي نفسه فقد فتن النقد الأدبي والدرس الجامعي وهمـا يسـتقبلان هـذا المصطلح بـ "الانزياح" مقابلا له، ثم كان "الانحـراف" و "التجـاوز" و "الخطـأ" و "الكسـر" و "الانتهاك" و "الشذوذ" و "الجنون" (5) . ثم بدا كما لو استقر على "العدول" الذي عثر عليه عنـد القدماء كابن حزم، وحازم القرطاجني، بل وجدنا الناقد الواحد يستخدم عددا من هـذه التسـميات وكأنه يسعى دون طائل إلى محاصرة المفهوم الكامن في الأصل (6) ويلقـى مصـطلح intertextualité اختلافا مشابها في التسمية العربية فمن تناص وتناصية (7) إلى بينصية (8) وبين نص ونصـية. ويـثير المصطلح signe بدوره أكثر من خلاف في نقله حيث عثرنا له على أربع ترجمات متداولة هي : دليل، وعلامة، وإشارة، وسمة (9) ولا يستقر نقله الـ métalangage التي منها la fonction métalinguistique وهي إحدى وظائف الإبلاغ الست التي حددها جاكبسون، فقد استخدموا مقابـل ذلـك "اللغـة

الواصفة" و "اللغة الشارحة" و "الميتالغة" و "الميتالسان" و "الماورالسان"...الخ. ولئن كان بعض هـــذه المصطلحات شاملا لعموم نقد المصنوعات الكلامية فإنه جرى على ألسنة نقاد الشعر واللغة الشعرية.

(4)

ويمتد الخلاف إلى الدوال المذهبية الأدبية والنقدية فيشمل أسماء المدارس والمنـــاهج وفي هـــذا الإطار وجدنا لـــ classicisme و romantisme أكثر من صيغة تسموية، وجدنا لـــ structuralisme ترجمتين متعايشتين هما الهيكلة والبنيوية وإن رجحت كفة الثانية مع الزمن (10) بعد رجحـــان كفـــة الأولى إبان دخول المصطلح (11) فضلا على ثالثة ورابعة قليلتي التداول هما بنائية وهيكلانية ولا توجد ترجمة واحدة في المعجم النقدي الأدبي، والشعري منه خاصة، لأي تسمية مذهبية أو منهجيـــة غربيـــة دخلت بمفردها فضاء الثقافة العربية.

(5)

وتصحب هذه الفوضى الترجمية لمفردات الحقل النقدي الشعري إحلالات عديدة من شأنها أن تزيد الوضع سوءا، مردها إلى قصور في تدقيق معنى المفردة المنقولة وإيجاد المقابل العربي أو تعذر إيجـــاده على الاجتهاد الفردي، بناء على كون المعجم مسألة حضارية والمصطلح نتاج بيئة ثقافية وسياق تاريخي لا يمكن عزله عنهما إلا تعسفا واغتصابا و لم تغب مآزق المشهد النقدي العربي في النصف الثاني مـــن القرن العشرين عن عديد النقاد والدارسين سواء داخل الفضاءات الأكاديمية والجامعية أو خارجهـــا وقد أشار هؤلاء إلى سلبيتين طبعتا عموم استقبال العرب للحداثة النقدية :

- أولاها التعامل الشكلي، وبالتالي السطحي، مع المناهج الوافدة، جراء انبهار في النظر وتعجل في النقل وقصور في الاستيعاب بما أدى أحيانا كثيرة إلى آلية في التطبيق وببغاوية في علاقة بالمقولات.

ولئن تفاوت تقصير النقاد هاهنا بتفاوت اجتهادهم وعلمهم فإنه قل النص الشعري الذي لم يضق بلبوس المناهج النقدية الغربية(البنيوية إلى التفكيك على الأقل !) وهي تطبق عليـــه تطبيقـــا وتطبق على روحه إطباقا (12) بعد فوات أوانها عند صناعها وتخليهم عنها إلى غيرها أحيانا، فيستغلق ويستحيل طلسما أو يفتقر حتى لا يعدو البنية الشكلية وشبكة الدوال أو يقول مـــا لا يقـــول ســـواء بمستوى معانيه الأول أو معانيه الثواني.

-والثانية النقل غير الدقيق والموحد لمفردات الجهاز المصطلحي النقدي، بناء على أن "كل وجهة نظر نقدية في دراسة الأدب لا تتوفر على جهاز مفاهيم دقيق ودال ستكون فرضياتها ضعيفة وينعكس ذلك أيضا على مستوى النتائج " (13) ومن هنا وقع الانتباه إلى الإخلالات العالقة بذلك النقل، والتي شملت

مستوى أول هو الدال وتمثلت في إعطاء مقابلات عديدة، مختلفة غالبا، لمفهوم غربي واحد ... مما يفقد المصطلح قيمته الإجرا ئية ويؤثر سلبا على دوره التواصلي الهام في المعارف وتطويرها (14) وشملت مستوى ثانيا هو المدلول "بإعطاء مفاهيم عديدة ومختلفة لنفس الدال الواحد... وذلك يفقد المصطلح حمولته الدلالية الموضوعية المرتبطة بمرجعية معرفية محددة واحدة ..." (15) أما ثالثة الإخلالات فحاصلة على مستوى الدال والمدلول معا، ويعد أخطر مظاهر اضطراب المصطلح النقدي لكونه يجمع بين مساوئ الاضطرابين السابقين .. بإعطائه دوال ومداليل مختلفة عما هو سائد ومعروف عن هذه المصطلحات في مرجعياتها الغربية الأصلية" (16) .

ويقف بعض هؤلاء كالعاجز أمام ظاهرة النقول ا لعربية المختلفة للمصطلح النقدي الغربي الواحد، فيقنع عند الحاجة، مضطرا بعرض ما أمكنه من الخيارات المتداولة كأن يقول في موضوع السيمياء "السيميائية أو السيمائية أو السيميولوجيا أو السيميوطيقا أو علم الإشارة أو علم العلامات أو علم الأدلة ...ترجمات وتعريبات تطول لعلم واحد ..." (17) ويشير إلى كون هذه ظاهرة عامة في النقد العربي الحديث، في كل ما يأخذ عن الآخر من مصطلحات " أو كان يشفع مصطلح "اللغة الشارحة" بالأصل métalangage ويعزز ذلك بخيار ثالث هو "الميتالغة" (19) . وينطلق بعضهم من اختلاف الواقع العربي عن واقع العا لم الغربي الذي أفرز الحداثة ليلخص إلى أن "نقل الحداثة الغربية المعرفية الجديدة، والمصطلح النقدي الذي تولد عنها ، إلى واقعنا العربي ضرب من العبث في الدرجة الأولى(20) فلا غرو أن "يجيء هذا المصطلح غربيا ويبقى غربيا ويذهب غربيا" (21) .

(6)

والحق أن أزمة المصطلح لا تخص أبناء الثقافة العربية في ما يستوردونه من إنتاج القريحة الغربية بل تشمل حتى أبناء هذه القريحة الذين ترتفع أصوات بعضهم منادية بتوحيد المصطلح النقدي (مثال الجدل الذي أثاره مصطلحا sémiotique و sémiologie) لكن حجم المشكل عندهم محدود مقارنة بحجمه عند من أخذ عنهم، وأمر التسمية يظل متاحا لمنتجي أشياء العالم عصيا على مستهلكيها، الذي ينشئ هو الذي يسمي ويسم المسمى بميسمه" (22) وتظل القضية قضية حضارية أولا وآخرا . ولعل قول القائل بأن "الأزمة ليست أزمة مصطلح بل أزمة واقعين ثقافيين وحضارتين مختلفتين (23)وأزمة فكر بالدرجة الأولى " (24) وأن "ليس هناك خوف وإنما إحساس بأزمة حضارية وانجراف في اتجاه معين ..." (25) أن يكون قد لامس هذه الحقيقة ولو هو لم يتعمقها ويقف عند أبعادها الكلية.

فما من شك عندنا في كون الحل الجذري يكمن في تصحيح الميزان الحـ ضاري واحتلال موقع المنتج الفاعل وبالتالي ترك موقع المستهلك والتابع والعالة . وحينئذ فحسب يتسنى لأهل العربية وهـم يصنعون أشياءهم وينجبونها أن يطلقوا عليها الأسماء التي يريدونها كما سبق أن صنعوا وسموا وأخذ عنهم.

ويحتاج تحقيق هذه المنزلة إلى إفاقة تاريخية ونـ قلة حضارية تنهض على توحيد الشتات وتجميع القدرات وإطلاق الطاقات، وفي انتظار أن تستحيل هذه الضرورة واقعا يجدر إيجاد السبل العاجلة الكفيلة بترميم الكائن وتخفيف وطأة الفوضى المصطلحية الراهنة بين الأقطار العربية والعمل على إصلاح حال الترجمات ومنها ما يخص الشعر، مجال بحثنا.

وقد يعترض معترض بالقول إن المجامع اللغوية تشتغل والندوات تعقد وجمعيات المعجمية تنشط وكذا مؤسسات الترجمة والتعريب، وليس في الإمكان أفضل مما كان . اعتراض لا يخلو، مأخوذا على عواهنة، من وجاهة لكن تدبر العلل الكامنة وراء عدم فاعلية مثل الحلول والعزوف عن تنسيق الجهود وضم بعضها إلى بعض في مواجهة قضية كقضية المصطلح النقدي يظل مطلبا ملحا.

واعتقادنا أن نشاط الهيئات والأطر التقليدية التي تجتمع دوريا أو بمناسبة ، لن يجدي نفعا طالما لم يجتذب نحوه معشر الميدانيين نقادا ودارسين ومدرسين وأهل كفاءة وتخصص ، ولم يشركهم في مناقشة الملف وطرح المسائل والبحث عن البدائل ثم طالما لم تنهض الإرادات السياسية بما عليها.

إن برلمانا معجميا عربيا يعنى بمعالجة الواقع المصطلحي ويسعى إلى توحيد نقل مفرداته وإنهاء حالة التشرذم والتشتت والفوضى من شأنه أن يوفر حلا ظرفيا بديلا ولعله يشكل خطوة على طريق الصحوة المنشودة.

و "الحق أن الدعوة إلى التوحيد متأتية من الإحساس بالفوضى في وضع المصطلحات التي أدت إلى تعدد المصطلحات وتداخلها وتناقضها أحيانا لكن توحيد المصطلحات ليس من الحلول السحرية التي تجعلنا ندخل رحاب العلم من أبوابه الواسعة (25) ثم دون المسعى التوحيدي ما تزال قائمة عوائق النزعة الفردية والقطرية بما أدى إلى غزارة في اقتراح المصطلحات لكن متعددة مضطربة متعارضة "فكل مدرسة نقدية مثلا تحمل خلفها ترسانة من المصطلحات (ترجمة أعمال الشكلانيين الروس مثلا) على قدر فهم الناقد يترجم ويقترح ما يراه من المصطلحات مع زملائه في نفس الخندق وقد يتجاهلهم وقد يكون في غيبة عما ينتجون" (27).

و لم تغب ضرورة الاستنجاد بأهل الاختصاص في "تدبير أمور المصطلح عند بعض أهل النظر على أساس أن التدبير ليس شأنا تقنيا يتكفل به مترجمون متمرسون يجيدون اللغات بل هو شأن معرفي بتكفل به المختصون في شتى فروع المعرفة" (28) وأن "المصطلح فعل حضاري في المقام الأول" (29) لذا ارتأينا فكرة البرلمان المعجمي العربي الذي تعنى إحدى لجانه الكبرى بالمصطلح النقدي الأدبي عامة والشعري خاصة، وتضم الفاعلين في الحقل نقادا ودارسين ومدرسين فضلا عن المعجميين واللغويين .

هوامش

1) انظر في الصدد بعض الكتب والدوريات التي عنيت في المحاولة بعرض المناهج النقدية الأدبية الحديثة وتقديمها ، من ذلك نذكر :

- المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، شكري محمد عياد، عالم المعرفة، ع 177، الكويت، سبتمبر 1993.

- النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، تأليف جان لوي كابانس، ترجمة فهد عكام، دار الفكر، دمشق، 1982.

ويعلل صبري حافظ هذه الفورة النقدية يقول : "لأن ما انتاب النقد الأدبي في القرن العشرين ليس أقل من ثورة معرفية كاسحة وغير مسبوقة..لأن ما أضافه لنا إلى النقد الأدبي يعادل ما أنجزه النقد الأدبي منذ أرسطو وحتى نهاية القرن التاسع عشر "

– النقد الغربي والنقد العربي –علامات، مارس 2002 ص 189

2) حاجة النص الإبداعي الجديد إلى جهاز مصطلحي نقدي جديد كانت هاجس شعراء التيارات الحداثية في البلاد العربية، عبر عنها كاتب هذه السطور قبل 32 عاما بقوله : "من المصطلحات النقدية ما تضيق به التجارب الجديدة (...) لابد إذن من تغيير جهاز المفاهيم والإصلاحات" – "كلمة بيانية ثانية في "غير العمودي والحر" – الفكر، تونس، جانفي 1970 ص 56.

3) وجدنا على سبيل المثال، في حقل الترجمات، فهد عكام يضع ثبتا مصطلحيا مطولا يذيل به نقله "النقد الأدبي والعلوم الإنسانية" لجان لوي كابانس – دار الفكر، دمشق، 1982 ص 133-134

ووجدنا، في الحقل نفسه، ميلان كونديرا يضع معجما بالمصطلحات الواردة في نص "فن الرواية" الذي نقله – علامات (مغربية) – الدار البيضاء، 1998 ص ص 116-118

4) مفاهيم الشعرية، حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1994 ص 18

5) انظر :الانزياح الدلالي الشعري، تامر سلوم، علامات مارس 1996، ص 90

6) استعمل فهد عكام "الانحراف" و "العدول" قال وقد تطورت أسلوبية الانحراف، أسلوبية ا لعدول في فرنسا مختلفة بعض الاختلاف..." م، س.ص 108

7) انظر : التناصية، بحث في انبثاق حقل مفهومي وانتشاره، محمد خير البقاعي علامات، مارس 1996، ص 129

8) انظر : المرايا المحدبة عبد العزيز حمودة أفريل 1998 ص 361

9) عرض لهذا الموضوع انطوان طعمة في "السميولوجيا والأدب" – عالم الفكر، مارس 1996 ص 207

10) انظر : - القراءة الأسلوبية بين الإنشائية والهيكلة، ثامر الغزي، علامات سبتمبر 1999 ص 355

- قضية البنيوية، تأليف عبد السلام المسدي مراجعة خالد وغلاني، علامات، جويلية 1996 ص 240

11) خص أشياع "الهيكلة" من كتاب "الطليعة" التونسية هذا المذهب بندوة مبكرة نظموها ونشروا موادها تحت عنوان "ملف حول الهيكلة" ثقافة ع 8 صيف 1972

12) احتهد كمال أبو ديب في تعريب البنيوية وفي تطبيقها على النص الشعري قديمه وحديثه، ومع ذلك لم يسلم مسعاه من تفقير لهذا النص عيب عليه... انظر نقد عبد العزيز حمودة لنقد البنيويين العرب، ولبنوية كمال أبو ديب تحديدا – المرايا المحدبة م،س، ص 13 ص 49 وانظر أيضا استدراكات محمد الناصر العجيمي في الغرض نفسه، المناهج المبتورة في قراءة التراث الشعري: البنيوية نموذجا، فصول 3 و 4 فيفري 1991 ص 109وكذلك نقود ريتا عوض الدائر ة على نبذ "استيراد المنـــاهج والآراء الجـــاهزة بدون حس نقدي حقيقي وبدون استيعاب بخصوصية التراث الشعري العربي ..." بنية القصيدة الجاهليـــة، دار الآداب بـــيروت 1992 وانظر أيضا غالي شكري في "سوسيولوجيا النقد العربي الحديث " حيث يقف على التناقض بين مصطلحات النقد الغربي وتجربتنا الأدبية باعتباره إشكالا مستعصيا على الحق – دار الطليعة بيروت 1981 ص 14.

13) حميد لحميداني، دراسة الأدب في الجامعة... أي منهج؟ علامات –ديسمبر 2001 ص 196

14)عبدالعالي بوطيب، إشكالية المصطلح في النقد الروائي العربي - قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية (أعمـــال نـــدوة مكناس) – المغرب 2000 ص 173ولئن كان مجـ ـال البحث هو الرواية فإن المشكلات والقضايا المصطلحية النقدية واحدة بينها وبين الشعر.

15) نفسه، ص 174

16) نفسه، ص 174

17) بسام قطوس، سيمياء العنوان، عمان، الأردن، 2002

18) نفسه

19) عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبةم.س.ص 354

20) نفسه، ص 37-38

21) نفسه، ص 37

22) عباس الصوري، بين التعريب والتوحيد قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية –مس.ص 99

23) المرايا المحدبة، م.س، ص 33

24) المرايا المحدبة، م.س، ص 34

25) عبـــد المحسن بـــدر، مشكلة المنهج في النقد العربي المعاصر، فصول ع3 أفريل 1981 ندوة العدد ص 24 .

26) عباس الصوري، م.س، ص 107

27)نفسه

28) سعيد بنكراد، المصطلح السميائي، الأساس المعرفي والبعد التطبيقي، قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية، م .س، ص 175

29) نفسه، ص 169